مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية
المجلد (11) العدد (02) السنة (2024)
الصفحة 273-290

الإنسانية الفائقة من نموذج إيديولوجي إلى عقد أخلاقي جديد

The transhumanism from an ideological model to a new ethical contract

إيمان خلاف[1*]، كمال حاج علي[2]
[1]جامعة 8 ماي 1945 قالمة – الجزائر
مخبر الفلسفة و الدراسات الإنسانية و الاجتماعية و مشكلات الإعلام و الاتصال
Khallef.imane@univ-guelma.dz
[2]جامعة 8 ماي 1945 قالمة – الجزائر
Kamelhadjali83@gmail.com

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 17/01/2024
تاريخ القبول:30/06/2024

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص: تروم هذه الدراسة إلى الكشف عن التحول العميق المصاحب لثورة الإنسانية الفائقة و المتجسد في الإنتقال من صناعة الأشياء إلى صناعة الكائن البشري ، مما نتج عنه تغير العديد من المفاهيم : الطبيعة و الهوية البشرية ، الحياة و الموت ، الكرامة و القيم الأخلاقية ، هذه الأخيرة التي شهدت تأزما و أفولا ، الأمر الذي بعث القلق لدى الفلاسفة ، ما دعى إلى "عودة الأخلاق" أو بناء "تصور أخلاقي جديد" ليس كترف فكري و إنما كضرورة ملحة للحفاظ على إنسانية الإنسان في ظل الوضع الراهن المابعد إنساني .

الكلمات المفتاحية: الإنسانية الفائقة ، ما بعد الإنسان، عودة الإتيقا ، ما بعد الأخلاق ، المنعطف الإتيقي

ABSTRACT

The aim of this study is to reveal the deep transformation accompanying the transhumanity revolution and embodied in the transition creating objects to creating the human being , which resulted in changing many concepts : nature and human identity , life and death , dignity and moral values , this later witnessed a crisis and a decline , the thing that makes every philosopher worries and ‘returns to ethics’ or to come out with ‘new ethical framework’ indeed not as an intellectual luxury but as an urgent necessity to preserve human humanity in this new situation or what is known by the posthumanity.

Keywords: Transhumanism , Posthuman, The return of ethics, Méta éthics , The ethical turning point .

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

نشهد في الوقت الراهن تطورا علميا و تكنولوجيا سريعا و مذهلا في شتى مناحي الحياة و خاصة في المجال البيوطبي ، ما فتح آفاقا جديدة أمام الإنسان المعاصر ، إلى حد التمكن من تغيير طبيعة الكائن البشري ، حيث أعلن علماء الجينوم عن مستقبل فائق للإنسان يتخلص فيه من العجز ، الشيخوخة ، المرض و يتحدى الموت سعيا للحلم البشري القديم ألا و هو الخلود ، هذه الحالة التي وصفت ب " الإنسانية الفائقة " و ما صاحبها من طرح لتصورات أخلاقية في ظل ظهور فكرة الإنسان الفائق ، من حيث طبيعته ، هويته ، بداية الحياة ، الجسد البشري ، ماهية الحياة و الموت ، الحقوق و الواجبات ... الخ ، و عليه فقدت القيم الزاميتها و معيارتها و صلابتها و قد مهدت لذلك السياقات الفكرية لنهاية السرديات الكبرى و أفول المعنى و ذيوع العقلانية الاستهلاكية و النزعة الفردانية ، و بالتالي فإن هذه الأخلاق الرخوة الجوفاء أضحت عاجزة عن مواكبة هذا التقدم التقنو علمي الذي أفضى إلى انزلاقات تهدد الكينونة البشرية و تنذر بنهاية العالم ، حيث شنت باسمه حروب و نزاعات بعدما كان مصدرا للأمان و الرفاهية بالنسبة للبشرية ، هذا ما جعل المفكرين على مختلف طبقاتهم و اهتماماتهم يدعون لعودة الأخلاق خاصة مع نهايات القرن العشرين ، و العمل على أخلقة جميع مناحي الحياة ، حيث جاء هذا الوعي المتجدد بالعودة إلى الإتيقا كحل للمشكلات و الأزمات الراهنة خاصة تلك التي خلفتها التقنيات الفائقة و مشروع الإنسانية الفائقة ، إذن ففي خضم هذه الأحداث بقي للإنسان الإتيقا بإعتبارها الوحيدة القادرة على إرجاعه إلى حضن الإنسانية بتعبيرالفيلسوف الفرنسي بول ريكورPaul Ricoeur بغية إحداث توازنات في علاقة الإنسان بالإنسان و بالبيئة ، من هنا يجدر بنا التساؤل :

- كيف يمكن تجديد الفكر الإتيقي اتجاه سلوكيات الإنسان في خضم بلورة مشروع الإنسانية الفائقة ؟

إن هذه الإشكالية تتفرع عنها عدة تساؤلات : هل الإنسان الفائق هو الذي يتصرف في القيم الأخلاقية إنشاء و تكييفا و من ثم صياغة و إنتاجا حسب ما يروم إليه من غايات و أهداف ؟ أم أنه مازال يخضع للنسق الأخلاقي و السلم القيمي الذي يبدو أنه فوقيا سواء كان دينيا أو عقلانيا ؟

لقد أردت من خلال هاته الورقة البحثية التي اعتمدت فيها على المنهج التحليلي ، تحليل و بيان ، أولا : ماهية مشروع الإنسانية الفائقة و ايديولوجيته ، ثانيا : المفارقات التي وقعت فيها هاته الإنسانية اليوم في مسألة العلاقة بين إنسان ما بعد الإنسان و القيم الأخلاقية .

و هنا تأتي أهمية هاته الدراسة خاصة أن الإنسانية الفائقة هي حديث الساعة " موضة " Phénomène de mode ، حيث جذبت أنظار المفكرين على اختلاف تخصصاتهم و اهتماماتهم ، ثم أتى ربطها بالأخلاق كون هذه الأخيرة موضوع فلسفي بإمتياز بإعتبارها أحد المداخل الأساسية لربط الفلسفة بالواقع اليومي للإنسان.

2.الإنسانية الفائقة: المفهوم ، الدلالة و السياق

1.2المقاربة المفاهيمية: الدلالة و النشأة

إن مصطلح الترانس trans في اللغتين الفرنسية و الإنجليزية يشير إلى عدة معاني تدل على التجاوز و التخطي و التحول و الإنتقال ، و عليه فعندما نقول Tanshumanism فهذا يدل على إنتقال الإنسان من حالته العادية التي هو عليها إلى حالة أعلى و أرقى أي فائقة . و هنا يتقاطع مع مصطلح آخر و الذي يستخدم في نفس الحقل الدلالي و هو ما بعد الإنسانية Posthumanism ، حيث مفردة Post تعني بعد مشيرة إلى نهاية مرحلة الإنسانية الحالية بحمولتها الأطولوجية و الأكسيولوجية و السوسيولوجية و البيولوجية ، وصولا إلى إنسانية جديدة معززة ، محسنة ، متطورة و فائقة تتغير وفقها كل المعطيات الإنسانية. (Gilbert, 2017, p. 230)

أما من الناحية الإصطلاحية يصعب ضبط تصور دقيق لمصطلح الإنسانية الفائقة ، نظرا لكونه ، أولا : مفهوم مظلي يتداخل مع الكثير من المصطلحات من قبيل : ما بعد الإنسانية ، الإنسانية الفوقية ، ضد الإنسانية ، التطورية الجديدة ، البيولوجيا التقدمية ، التي كلها تدعوا إلى تفكيك الإنسان بمقولاته الكلاسيكية المتعالية ، العقل ، الأخلاق ، السيادة على الطبيعة ، الوعي ، الحرية المطلقة ، العلم و التقدم ، و إعادة تشكيل مفهوم جديد له يختلف عن التصورات السابقة . ثانيا : مفهوم علائقي شامل لعدة تخصصات كالفلسفة ، الأخلاق ، الثقافة ، البيوتكنولوجيا ، علوم الهندسة الوراثية و الجينوم ، التكنولوجيا الرقمية ، الذكاء الإصطناعي ، علم المستقبل ، الفنون المعاصرة و الخيال العلمي .

يرجع الفضل في نحت مصطلح الإنسانية الفائقة إلى الكاتب البيولوجي و الفيلسوف الإنجليزي جوليان هكسلي julian Huxley (1887-1975) حينما وضع تصور لمستقبل الإنسانية و التغييرات المحتمل حدوثها على قدرات الإنسان ، و ذلك في مؤلفه (الإنسانية الفائقة : دراسة في مواجهة القيود البشرية) سنة 1957م ، كما أنه ألف الكثير من الأعمال التي تعالج مسائل تخص التطور البيولوجي للكائنات الحية ، مثل كتاب (التطور : الأساس الأساسي لفهم الحياة – Evolution the modern synthesis) ، و كذا تأثير التطور في الأخلاق ، مثل (الأخلاق و التطور – Ethics and Evolution) . (Ferry, 2016, p. 23) كل هذه المؤلفات ساهمت في نشر فكر الإنسانية الفائقة و البعدية مع هكسلي الذي رأى أن الكثير من الناس مجبرون على عيش حياة سيئة ثم يحتاجون للوصول إلى مبتغاهم و لا يصلون أبدا ، و لهذا فهو يظن أنه من خلال التطبيق الصحيح للعلم و العقل ، يمكننا حل مشاكل مثل الفقر و المرض و بالتالي جعل العالم مكانا أفضل.

و هناك من يرجع أصل هذا المصطلح إلى الناقد الأمريكي المصري حسن إيهاب (1925-2015) ، حيث أخذ معه طابعا أدبيا نقديا ، و ذلك عندما نشر مقاله (بروميثيوس : نحو ثقافة ما بعد إنسانية ؟ – Prometheus as performer :towars a posthumanist culture ؟) سنة 1977 ، محاولا وصف ما يمكن أن يحدثه التطور التقني على الطبيعة البشرية (الإدريسي، 2017، صفحة 27)، و قد عاد استعمال هذا المصطلح بقوة في تسعينيات القرن الماضي بحمولته المفاهيمية الراهنة مع فيلسوف السخرية الألماني بيتر سلوتردايك Peter sloterdijk (1947-) مشيرا به إلى ذلك الإتجاه الذي يعمل على تطوير الإنسان الصحيح و السليم من حيث

البنية الجسمية و العقل حتى يكون ممتاز ، متفوق ، أعلى و يتميز بأنه أسرع ، أقوى و أذكى. (طاهير، 2023، صفحة 236)

و منذ ذلك الوقت باتت الإنسانية الفائقة و قضاياها مثار جدل في مجالات متعددة ، و في الغالب حمل هذا المصطلح دلالة سعي الإنسان لتخطي الحدود البيولوجية و الذهنية العادية و تحقيق الحلم القديم المتمثل في الخلود ، و العمل على هذا الأمر قد بدأ و و بدأت تظهر معه نتائجه الأولى ما أثار انتباه الباحثين و الهيئات الدولية و عقدت لأجل ذلك ندوات و محاضرات لفلاسفة و علماء مهتمين بهذا الشأن ، مثل : جاك تستار ، ايرلي جيفان ، نيك بوستروم ، راي كيرزويل و غيرهم .

و عموما يمكن تعريف الإنسانية الفائقة بأنها حركة ، توجه و مشروع ثقافي ، فلسفي و علمي يدافع عنه و يدعوا إليه و يعمل فيه مجموعة من العلماء و الباحثين من تخصصات متعددة و متكاملة : الهندسة الوراثية ، علم الجينوم ، علوم الدماغ ، النانو تكنولوجي ، البيوتكنولوجي ... الخ ، و التي تسخر تقنياتها الفائقة لتعزيز و تطوير قدرات الإنسان العادي على المستوى الجسدي و العقلي و حتى النفسي العاطفي ، متجاوزة حدوده البيولوجية أي المرض ، الموت ، الألم ، العجز و المعاناة ، للوصول به إلى مرحلة لاحقة للتقدم البشري أين يصبح أقوى ، أذكى و أسرع إلى حد القضاء على الموت بدمج التكنولوجيا في الحياة اليومية (Ferry, 2016, pp. 23-24)، و قد تنبأ راي كيرزويل بقدوم هذا العصر الذي نحن على أعتابه و يتحقق كليا بحلول سنة2050م.

إن مفهوم ما بعد الإنسان يمثل سمة من سمات الوضع الفكري الذي نحن فيه ، فهو يعبر عن لحظة تاريخية تتبع إطارا خطابيا مختلفا و تتطلع بشكل أكثر إيجابية نحو بدائل جديدة تسعى لتجنب مثمر للمفارقات الخطابية التي تسببت في أزمة الإنسان المعاصر إلى إعلان موت الإنسان ، حيث إذا تتبعنا مسارها التاريخي نجد أن ظهورالنزعات الراديكالية خاصة الفاشية التي شكلت انقلابا ضد العقلانية ، و كذا الشيوعية التي حاربت الفردانية ، تعتبران نقطة تحول ضد الإنسان بالمفهوم الغربي الأوروبي ، و لنكون أكثر دقة وفق التصور الديكارتي من خلال الكوجيطو الذي أقصى الكثير من الفئات ، ثم إن الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel foucault (1926-1984) عندما نشر كتابه الكلمات و الأشياء سنة 1966م ، و الذي أعلن من خلاله صيحته المشهورة موت الإنسان ، شرع المثقفون يراجعون مفهوم الإنسان وصولا إلى موته معبرين عن رفضهم للنزعة الإنسانية الكلاسيكية التي قدسته و جعلت منه مركزا للكون باعتباره ذات متعالية ، عقلانية و واعية ، إلا أن فلاسفة ما بعد الحداثة سحبوا هذه المثل العليا للإنسان الغربي الأوروبي ، و اعتبروه مجرد عرض مرضي ثقافي إقصائي (الدواي، 2000، صفحة 10،14)، بل إن الأمريكية دونا هاراواي Donna Haraway (1944-) التي رفضت فكرة موت الإنسان الفوكاوية إعترافا منها بأن الإنسان في الأصل لم تكن ذاته موجودة . و في خضم هذه الظروف تجدد سؤال : ما الإنسان ؟ ، من هنا جاءت الدعوات إلى ضرورة تجاوز الإنسان لذاته ، و قد تدعمت هذه الفكرة أكثر بفضل التطورات التقنية المعاصرة خاصة في مجال الطب و البيولوجيا و الذكاء الإصطناعي ، خاصة مع ثورة الهندسة الوراثية التي ساهمت و شجعت على ظهور فكرة الإنسانية الفائقة ، أين تم التخلص من فكرة الإنسان الفكري العلائقي نحو الإنسان المادي الجسدي البيولوجي ، و بالتالي التركيز فيما بعد الإنسانية على طرق جديدة غير إقصائية و توسيع هذا التعريف أو المفهوم . إن هذه النهايات

التي وصلت إليها الإنسانية اليوم في طموحها إلى أمريين أساسيين هما : تحقيق الخلود ، و القضاء على الإنسانية الحاضرة و فتح ملف جديد و هو الإنسانية الفائقة ، أو ما اصطلح عليه تمثيلا المفكر طه عبد الرحمان الإنسان ما بعد الدهراني ، و هو الذي يتجاوز الإنسانية الضعيفة المنهكة التي أرادت الأبحاث العلمية تجاوزها ، و ذلك بتحقيق مشروع جديد يتمثل في الخروج من نسق الإنسانية الحاضرة الموسومة بالضعف إلى إنسانية جديدة تكون فائقة ، قوية و خالدة ، و هي آمال تطمح إليها الإنسانية اليوم ، و طبعا نحن هنا نتحدث عن الإنسان الغربي الذي يمتلك براديغم التقدم و القوة و السلطة على الإنسانية ، و على الرغم من اعترافه بحقوق الإنسان و مبدأ تعدد الهويات و الإختلاف القيمي ، لكن شئنا أم أبينا ، فإن النموذج الغربي هو الذي يهيمن على العالم.

و يمكن تعريف الإنسانية المتجاوزة أو المتحولة أيضا بأنها إيديولوجيا تسعى لإعادة إحياء رغبات قديمة تتمثل في القضاء على الأمراض و تحدي الموت بتحقيق الكمال و الخلود ، و هذا لأنها تنظر إليها على أنها مجرد عجز بيولوجي يمكن تخطيه بفضل التقنيات المتقاربة NBIC (إختصار للمجال الذي يجمع بين : النانوتكنولوجيا N و البيوتكنولوجيا B و تكنولوجيا المعلومات I و العلوم المعرفية C)، و قد لاقت هذه الحركة قبولا في و.م.أ ثم أوروبا و أسست لها عدة جمعيات و مؤسسات لتروج لأفكارها ، و تم وضع شعار لها (من الحظ إلى الإختيار) ، و يرمز لها بالرمز H+ إختصارا ل Humanité+ تمييزا لها عن الإنسانية التقليدية العادية (طاهير، 2023، صفحة 235،236)

لقد ورد على لسان الفيلسوف الفرنسي جاك تستلJack Testart (1939-) في مقابلة له في برنامج le monde en Francais بأن الإنسانية الفائقة إيديولوجيا طفولية لأنها تعيد إنتاج عدة رغبات بدائية تدعي حلها بفضل التقدم ، فهي مزيج من هذه الطفولية البدائية من قبيل الحصول على كل شيء (الكمال) و تجنب المرض و الموت (الخلود) مع تقنيات تسمح بتحقيق كل تلك الرغبات ، فهي حسبه تسعى لتغيير الإنسان بشكل عام ، هي الإسم الجديد لتحسين النسل Eugenism بمعنى الرغبة في تحسين النوع الإنساني.كما نوه إلى عدم الخلط بين الإنسانية الفائقة و الطب عالي المستوى ، فعندما نزرع قلبا لأحد ما فهذا ليس ما بعد إنسان ، إذ نحن لا نجعل منه إنسانا متفوقا على من لديهم قلب طبيعي ، فعندما يكون له قلب ميكانيكي نحن هنا لا نحسن الإنسان ، نحسنه فقط إذا سمحنا له بالحصول على قدرات لا مثيل لها لدى البشر ، و هذا ما تسعى له الإنسانية البعدية .

2.2فلسفتها و إيديولوجيتها:

– حتمية التطور البيولوجي:

ترجع الإرهاصات الفكرية للإنسانية الفائقة إلى نظرية التطور الداروينية التي تعتقد بالتطور الطبيعي للإنسان ، من منطلق أن التاريخ البيولوجي و الفيزيولوجي للبشرية يثبت التطور الذاتي للكائنات الحية الإنسانية ، و السؤال المهم اليوم عند الفلاسفة التطوريين : هل توقف التطور الإنساني أم لا زال يستمر ؟ الجواب حسبهم أنه لم ينته بعد ، و بما أنه لا يظهر على الإنسان فهنا يصبح عدم التطور عائقا أمام التطور ، و عليه فالواجب علينا أخلاقيا المساهمة في تسريع وتيرته خدمة لصالح و رفاه الإنسان من خلال تعديل و تعزيز طبيعته و تحريره من أي قيود بيولوجية ، ذهنية و

نفسية فرضت عليه و ذلك بتسخير تقنيات متطورة و متخصصة وصولا به إلى الإكتمال Perfectibilité و الخلود اللذان يعبران عن حلم طوباوي سعى إليه الإنسان منذ القدم.حيث أن دور الطب اليوم لم يعد مختزلا في الوقاية و العلاج من الأسقام ، إذ تجاوز ذلك إلى تعزيز قدرات الكائن البشري و التخلص من الضعف و القصور فيه (طاهير، 2023، صفحة 236،237). و عليه فأنصار الإنسانية الفائقة لا يعتبرون الإنسانية الحالية نقطة توقف التقدم ، فمن خلال الإستغلال الجيد لمخرجات و منتجات العلم و التكنولوجيا ، ستتمكن البشرية في الحصول على قدرات أكبر من البشر الحاليين.

– نفي وجود طبيعة بشرية:

تأخذ طبيعة الكائن البشري في التقاليد الفلسفية تصورين أساسيين ، الأول : عضوي بيولوجي يتمثل في جملة الخصائص و الصفات الوراثية للإنسان ، الثاني : ميتافيزيقي أخلاقي و يشمل هوية الإنسان و ماهيته و كرامته ، حيث يغلب عليها طابع القداسة ، فهي أمر لا يمكن و لا ينبغي تغييره بأي شكل من الأشكال و مهما كانت الغاية ، هذه الرؤيةالتي تبنتها النزعة الإنسانية إضافة إلى البيولوجيين المحافظين bio-conservateurs ، نظ راللإنزلاقات الأخلاقية التي ستقع فيها جراء ذلك ، إذ أن معيار الطبيعة حسبهم ثقافي معنوي قيمي يتجلى في الهوية ، الوعي ، الحرية ، الإرادة ، الكرامة و الحقوق كصفات جوهرية ماهوية ثابتة مطلقة لا تقبل أي تغيير أو تلاعب .لكن هذا التصور يرفضه المدافعين عن الإنسانية الفائقة ، نافين بذلك وجود ماهية ثابتة للبشر ، إذ ينزعون القداسة و الطابع الأخلاقي المعنوي في نظرتهم للطبيعة البشرية ، و ما يمكن أن نستشفه من أفكار حول تصورهم لطبيعة الكائن الحي أنها تتضمن نوعا ما نزعة مضادة للطبيعة البشرية Anti-naturalisme إذ يسعون لإفراغ الطبيعة الإنسانية من محتواها الميتافيزيقي الصوري المثالي في مقابل جعلها أكثر مرونة يمكن تطويعها حسب رغبات و إختيارات و منافع الإنسان (Ferry, 2016, pp. 20,21) ، فهي ليست غاية في حد ذاتها ، بل مجرد وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان و رفاهية عيشه ، و لهذا فالأجدر هو هجر الحديث عنها كليا .فحسب هكسلي لا يمكن أن تتحقق الإنسانية الفائقة إلا بالتغيير من الطبيعة الإنسانية و ذلك بتجاوز الحدود و القيود البيولوجية و الحصول على قدرات جديدة فائقة.

هناك جانب فلسفي في هذا الأمر كله مهم و خطير ، هو أن أصحاب هذا المشروع لا يؤمنون بوجود روح في الجسد ، فهذا الأمر عندهم عبارة عن عمليات كيميائية و فيزيائية تحدث داخل الدماغ ، و منه اختزلوا الإنسان في الدماغ ، و دعوا إلى تخليص هذا الإنسان من بدنه و دماغه و تغيير خلقته عموما ، بحيث يصبح الدماغ أولا عبارة عن جهاز حاسوب ثم يصبح تطبيقا على الكمبيوتر يحمل على ذاكرة ، بمعنى يستطيع الإنسان بهذه الطريقة العيش على شبكة النت و السفر إلى الفضاء عبر حمله داخل شعاع ليزر (كاكو، 2017، صفحة 326)، و هذه المرحلة الجديدة التي يسمونها ما بعد الإنسانية .

يسلم سلوتردايك بأن الكائن البشري غير مكتمل بطبيعته في جميع النواحي البيولوجية ، الإجتماعية ، النفسية ، الأخلاقية ، التربوية ، و السلوكية ، و لهذا سعى دائما نحو الكمال ، فلجأ للتعلم و الإكتساب و التلقين مستعينا بأساليب و طرق تساعده على إعادة تشكيل ذاته و ذهنيته و سلوكاته و قيمه كالتربية و قواعد الزواج و المؤسسات

الرمزية ، ما يعني أنه يعيد إنتاج ذاته ، أو كما أطلق عليها تدجين ذاتي للإنسان ، أما في الفترة المعاصرة و مع تطور التكنولوجيات الحيوية استخدمها لهذا الغرض معتمدا على تغيير رصيده الوراثي ، هذا ما يوحي بأنه لا وجود لجوهر للإنسان بإعتباره معطى نهائيا . (طاهير، 2023، صفحة 268)

إذن تقوم فلسفة خبراء التحول الإنساني على فكرة مجاوزة التصور الكلاسيكي للطبيعة البشرية ، إذ أن الإنسان حسبهم كيان يمكن تطويره و تحسينه بفضل البيوتكنولوجيات الفائقة للتغلب على الحدود التي يفرضها تراثنا البيولوجي الوراثي ، و هذا ما يجعل الطبيعة الإنسانية وفقا لفلسفتهم متغيرة يمك تشكيلها ، فهي ليست ثابتة ، بل هي مجرد نقطة واحدة و تطورية ، و بناء على ذلك لابد من دمجها مع التقنيات و التدخل في تركيبها جينيا بطرق مرغوبة و قيمة بحيث يمكننا أن نصبح شيئا لم يعد وصفه بدقة كإنسان حيث تتطور قدراته ، و تعاد صياغة هويته تبعا لذلك .

-التحسين التكنولوجي للقدرات البشرية:

وفقا لرؤية الإنسانية الفائقة فإن الإنسان يملك العديد من المؤهلات غير المستغلة ، و بالتالي فهي تحتاج إلى تطوير و تحسين على المستوى العقلي و الجسدي و العاطفي قصد بلوغ الكمال البشري ، و يمكن إعتبار ما أحرزته البشرية اليوم من تفوق تكنولوجي بفضل الثورة التي قامت في مجالي الطب و البيولوجيا ، خاصة الهندسة الوراثية و الجينوم و تقنياتها المختلفة سخرت لخدمة الإنسان حيث اتيح له تعديل ذاته و تعزيز قدراته ، هذا النجاح الباهر تخطى مقولة التطور الطبيعي الداروينية ، إذ سيتيح للإنسان كذلك تجاوز و تخطي الحدود و العوائق البيولوجية بفضل تكنولوجيات البرمجة الوراثية إذ أصبح بالإمكان بالنسبة للنوع الإنساني الرقي بذاته و تطويرها من خلال استبعاد كل الصفات الجينية غير المرغوب فيها كالمرض ، الألم ، الشيخوخة ، العقم ، القبح ، الغباء ، العجز و حتى الموت ، و إعادة رسم خارطة جينية حسب الرغبة تضمن الحصول على أشخاص حسب الطلب متجاوزين بذلك العاهات وصولا به إلى حلمه اليوتوبي المتمثل في الخلود و العيش في عالم أفضل خال من المعاناة ، و هذا كله بيد الإنسان ، فالمقياس هنا هو إرادة الشخص المتمثلة في إختياراته الشخصية القائمة على مبدأ الحرية. (طاهير، 2023، صفحة 237،238) و نتيجة لذلك خروج الإنسان كذات جوهرية ثابتة مقدسة نحو كائن بشري جديد معزز وراثيا مدعم آليا و مطور عقليا ، و هنا يأتي طراز جديد يتمثل في إنسان ما بعد الإنسان ، فحسبهم هناك سوء فهم اتجاه تدخل التقنيات على جسد الكائن البشري إذ ينظر لها كعنصر غريب عنه ، لكن في الحقيقة لها أصل بيولوجي.

3.المنعطف الأخلاقي المعاصر: من التعالي إلى المحايثة:

1.3تهاوي المقدس و إفلاس المعنى أو نهاية الأخلاق:

لقد جعل السفسطائيون الإنسان مقياس كل شيء و من ضمن ذلك الأخلاق ، ما جعلها تصبح مجرد وسيلة و ليست غاية ، و عليه فإن لحظة بناء الأخلاق المعيارية المتعالية قد انطلق مع الفيلسوف اليوناني سقراط socrat حيث خالفهم في توجههم و جعل الأخلاق غاية في حد ذاتها ، و هي غاية الغايات التي يصبو الإنسان إليها ، و إذا ما أصبحت وسيلة فقدت ماهيتها و قيمتها . (بوحناش، 2017، صفحة 83)

و قد ترسخ التعالي الأخلاقي أكثر مع الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط Emmanuel kant (1724-1804) الذي شيد فلسفته الأخلاقية على نظرية الواجب لذاته ، إذ قسم الغايات الإنسانية إلى قسمين : غايات ذاتية فردية ، و هي مرتبطة بالسلوك الشخصي للأفراد و تكون نسبية متغيرة تابعة لرغباته و منافعه و ملذاته ، و هنا تكون الأخلاق مجرد وسيلة لتحقيق منفعة ، و غايات بذاتها و التي تكون موضوعية ثابتة تمثل الإرادة الخيرة و الحرة في الإنسان ، و بالتالي فهي تمثل جوهر موضوع الأخلاق (بومسهولي، 2021، صفحة 33) . و بذلك تكون تسير بمقتضى الواجب لذاته و يكون السلوك الخاضع لها أخلاقيا ، و الأوامر الصادرة عنها شمولية مطلقة غير مشروطة بمنافع عملية ، و تمثل قاعدة أخلاقية تشمل الجميع دونما استثناء و تنتهي بأخلقة الإنسان .

لكن مرحلة إرساء الأخلاق كنسق نظري قد عقبتها مرحلة أخرى حاسمة ، تميزت بالتفكيك و العدمية ، و بدأت بمجيء الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) الذي توجه بنقده اللاذع للنظرية الأخلاقية التقليدية بمبادئها و غاياتها و ذلك لتحطيم مشروع التجلي العياني للخير الأعظم كما تصوره الفلاسفة النسقيون . لقد كان لمقولة موت الإله النيتشوية أثر كبير مقارنة بما قدمه المشروع التفكيكي ككل ، حيث أحالتنا إلى مفهوم العدمية Nihilisme أو إفلاس المعنى أو نهايات السرديات الكبرى Grands Récits معلنة عن هدم و تلاشي القيم التقليدية القائمة على المقدس الديني و التعالي العقلاني (بومسهولي، 2021، صفحة 72،71) فنيتشه بإعلانه موت الإله قد عني به موت القيم الإلزامية ذات الطابع الإكراهي المجرد و المحصورة في الواجبات ذات السلطة الخارجية (دين-عقل-مجتمع) متجاهلة جسد الإنسان و رغباته ، و هنا بدأت بالإرتباط بالفرد و هذا يعتبر خير نموذج عن نهاية الأخلاق أين تم تقويض قواعدها الفوقية و حصر أسسها الوجودية في ثنائية الفردانية و الإرادة. (بوحناش، 2017، صفحة 62)

لقد كان من أسباب أفول القيم كذلك ظهور الآداتية مع الفلسفة البراغماتية الرأسمالية الإتجاه ، و مانتج عنها من مجتمع إستهلاكي ، وكذا النزعة الفردية المطالبة بالحقوق و على رأسها الحرية و المساواة في مقابل إلغاء الواجب الأخلاقي و ما يصاحبه من صفة الإلزام ما يعني أن الأخلاق أصبحت في يد الإنسان هو واضعها و صانعها و ليس العكس ، أي أنها دنيوية نسبية انكبت على فهم الطبيعة البشرية ، و أضحت مجرد سلوكات يمارسها الأفراد تحقيقا لسعادتهم ، و التي خلقت إنسانا ذو بعد واحد استهلاكي بتعبير ماركيوز يعيش مع المتغير الإقتصادي فيخلق قيمه وفقا لأطرها مثل فكرة تغيير الجنس ،هذا ما دعمته المنظمات الحقوقية إذ توافق على هذه الأخلاق المفتوحة بإسم احترام الخيارات الإنسانية ، فهي مرتبطة بالعواطف و المصالح بعيدا عن المنطق الأخلاقي الذي يحيل إلى الفهم المشترك للقيم ما يعني " تفريغ الأخلاق من مضمونها المعياري التوجيهي ، مما يعني أدت مفهوم نهاية الأخلاق بما أن أصل الأخلاق هو التوجيه نحو ما ينبغي أن يكون " . (بوحناش، 2017، صفحة 44،43) هذا ما أدى إلى ظهور ما يسمى بالمنعطف الأخلاقي و الذي يتمثل في سقوط القداسة و المطلقية و المعيارية و التعالي في الأخلاق بحيث أصبح لا وجود لقواعد و ضوابط صارمة و حلول النسبية ، و هنا تكمن الأزمة ، إذ أن سمة الفردانية الأخلاقية الجديدة في مقابل العقلانية شكلت تفكيكا نسقيا للقيم القديمة ، حيث أصبح إنسان ما بعد الحداثة مصابا بالذاتوية أي التمركز حول الأنا و الهوية و الذات التي بدورها تتفجر إلى ذوات ، و هو يتغير من مرحلة إلى أخرى ، و هذا واضح في حلم

الإنسانية البعدية : السيبورغ ، الإنسان الفائق ، الإنسان الأخضر ... ، و للتوضيح أكثر أصبح ينظر لنفسه على أنه فرد ، شخص مستقل عن كل المحيط الإجتماعي ، تجذرت فيه الفردانية نتيجة أنه منتوج لأزمات متلاحقة سياسية ، اجتماعية ...، وصفت ذلك الطبيبة الفرنسية آن فاغو لارغو anne fagou largeaut بأن الإنسان ما بعد الحداثي يعيش ضبابية القيم لأنه فقد ما يؤطر مرحلة الوصول ، أي أنه فقد المعنى و القيم الصلبة ، بمعنى أن الأخلاق فقدت سلطتها على سلوكيات الأفراد ، و هذا ما يعتبر دعوة إلى نهاية الأخلاق بالمفهوم الكلاسيكي الكانطي .

حسب عالم الإجتماع البريطاني زيغموند باومان Zygmunt Bauman (1925-2017) فإن ذهنية الإستهلاك للمجتمعات المعاصرة الناتجة عن سيادة النظم الرأسمالية الليبيرالية أفضت إلى هشاشة الوضع الإنساني عموما روابط ، أخلاق ، ممارسات و مشاعر مايفرض التحلي بالمسؤولية الأخلاقية لمواجهة هذا الوضع . إن إنسان ما بعد الحداثة هو إنسان حقيقة يعيش بحسب تعبير باومان حالة السيولة التي لم يعد لديها اليوم خطوط تحيط بها و نهج يمكن أن تسير عليه ، (جديدي، الأفق البيوإتيقي، 2021، صفحة 53) إذن توجد اليوم أزمة قيم خانقة تتردد في الإنسانية بصفة عامة ، ذلك أننا لم نعد أمام منظومة قيمية صلبة ، وإنما سائلة تتكيف حسب رغبات الإنسان الذي أصبح سفسطائي كما وصفه لوي لافيل LavelleLewi .

و وفقا للفيلسوف الفرنسي جيل ليبوفيتسكي Gilles Lipovetsky (1944-) فإن الإنسان يعيش حالة حداثة فائقة Hypermodernité التي أنتجت أخلاق فردية رخوة بدأت بأفول الواجب و انتهت بإنهيار القيم ، حيث جعلت هذه الظروف الإنسان ناقدا للقيم و ساعيا لها في الآن نفسه ، و هنا يكمن التناقض حيال هذا السياق بين التصور الذي يدعو إلى التمسك و المحافظة عليه و من يحاول تخطيه ، هذا ما اسماه ليبوفتسكي بالمفارقة Paradox التي تعيشها المجتمعات المعاصرة التي وصفت بما بعد تخليقية . و عليه فالمجتمع ما بعد الأخلاقي حسبه هو مجتمع رافض لصرامة الواجب و لزوميته في مقابل الإشادة بقيمة الحقوق الفردية و الإستقلالية و الرغبة و السعادة ، فهو مجتمع تعنيه فقط المعايير و القيم غير المؤلمة للحياة الأخلاقية أي ذات الطبيعة النفعية البراغماتية الإستهلاكية . (ليبوفيتسكي، 2018، صفحة 15) إذن فأفول الأخلاق و نهايتها تجسدت حين سقطت الصفة الجوهرية لها و تعريتها من أطرها الثابتة و المتمثلة في العقلانية و المطلقية و الإلزامية ما خلق فراغ روحي و معنوي و زوال المقدس نتج عنه تشظي المعنى بالمفهوم الكلاسيكي و حلت محلها مقولات الحرية ، الإستقلالية و الفردانية ، و هذا مهد للولوج إلى ما بعد الأخلاق.

لقد مثل ما بعد الأخلاق Méta éthique الموضوع المركزي لسؤال الأخلاق في منتصف القرن العشرين ، فلم تعد هناك إمكانية لبناء نظرية أخلاقية ترتكز على بنية معيارية تحدد ما يجب أن يكون ، بل الأخلاق هي مسألة فردية تعبر عن مجرد رغبة أو حق ، إذ يتميز الما بعد بإفتقاره أو تخلصة من الصرامة و الإلزامية و الإكراه . (بوحناش، 2017، صفحة 58،57)و عليه فما بعد الأخلاق هي إعلان لنهاية الأخلاق وفق مفهومها التقليدي حول الواجب و إحلال الحق محله . و السؤال الذي يطرح نفسه هنا إذا كان الإنسان معروفا بجوهره الأخلاقي فهل بإمكانه مواصلة مساره بدون مرجعية القيم ؟

إن هذه الظروف التي طبعت فكر الحداثة و ما بعد الحداثة طرحت قضية الأخلاق مواكبة زمن المابعديات و يمكن اعتبارها ثورة اخلاقية تتجه نحو اتخاذ سلطة القيمة في حد ذاتها و علاقتها بالمطالب الإنسانية المنشودة موضع التفكير و المناقشة ، و هكذا فإن الإنسانية تصبو إلى صياغة قيم أخلاقية جديدة تتماشى و تصوراتها و مرجعياتها من حرية و فردانية و استقلالية و نسبية و نفعية و غيرها ، لتقدم بذلك نموذج أو براديغم أخلاقي ذو بعد أنطولوجي أكسيولوجي يقدم تصورات جديدة عن الطبيعة البشرية ، الكينونة ، الهوية ، الحقوق و العلاقات و هذه هي عقلانية الإنسانية الفائقة أو المرحلة الجديدة للإنسانية. (بوحناش، 2017، صفحة 116) خاصة و أن الأخلاق المعاصرة أصبحت مرتبطة بالعلم و التقنية .

2.3الإنسان التقني و الأخلاق الرخوة:

إن المنعرج الأخلاقي يتجلى أيضا حينما حاولت الأخلاق الموازنة بين العلم و القيم ما أفضى إلى ترجيح كفة العلم على حسابها ، إذ أن ما نسميه بأزمة الأخلاق يتضمن أزمة في إبداع القيم و المعايير ، إن التقنية عمياء اتجاه القيم ، فمنتجوها لا يناقشون افرازاتها ، و لا يصدرون أحكاما قيمية بشأنها من حيث القبول أو الرفض ، فهي لا تتعامل مع الإنسان ككائن قيمي متميز عن بقية الكائنات بالأخلاق إذ أنها ذات طابع آداتي براغماتي تتماشى و روح الرأسمالية و النزعة الإستهلاكية هذا ما ينبؤ بدخول الإنسانية عصرا جديدا تغير من خلاله مفهوم الحياة و الطبيعة البشرية و نهاية الحياة .. و من هذا القبيل ، ما يدفع لضرورة صياغة مفهوم جديد عن القيم و إعادة طرح قضية الأولوية : التقنية أم الأخلاق ؟ ، فحسب ميزات العصر الحالي أي عصر التقنو – علمي فالأولوية ستكون لصالح التقنية على حساب الأخلاق التي لابد لها أن تكيف نفسها مع هذا الوضع ، و هنا تتعمق الأزمة الأخلاقية في الراهن الإنساني ، فهل بقي من حديث عن القيم بمنظورها التقليدي ؟ (بوحناش، 2017، صفحة 19،18) إن الأخلاق الجديدة جوهرها مناقشة العلاقة بين القيم و غايات التقنية ، ذلك أن التقدم البيوتكنولوجي مكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة و على الحياة البشرية في حد ذاتها ، لهذا وصفه لوك فيري L.Ferry بالإنسان المؤله ، لكن سرعان ما استفاق مصطدما بواقعه المتمثل في التجاوزات الأخلاقية و تبعاتها التي أوصل نفسه إليها من خلال غروره بقدراته و سعيه نحو الكمال على حساب الأخلاق خاصة فيما يتعلق بموضوعات مثل : الحرية ، الكرامة ، العائلة و التعاون ، إذ وجد نفسه أسيرا للعلم و منجزاته كنوع من العبودية الجديدة ، هذه الإستفاقة صاحبتها دعوات للعودة إلى الأخلاق أو عقد أخلاقي جديد يتماشى و غايات الإنسان في ظل سيطرة التقنو–علمي كقدر محتوم . (جديدي، ما البيوإتيقا، 2020، صفحة 43)

و منه فالأخلاق في عصر التقنية باتت وسيلة لغاية و هي تحقيق سعادة الإنسان ، و مع تطور البيوتكنولوجيا انحصرت و ارتبطت بالكمال البشري و تحقيق الخلود و القوة من خلال السيطرة على الجسد و الحياة و العضوية للإنسان لخلق إنسان فائق وصولا إلى مرحلة ما بعد الإنسانية ، لكن هل استطاع هذا الإنسان الإلتزام بالأخلاق السابقة ؟ أم أن هذا يعني ضرورة صياغة عقد أخلاقي يتماشى و طبيعة هذه المرحلة الجديدة للإنسانية ؟ (بوحناش، 2017، صفحة 89،88) تأتي هذه التساؤلات خاصة و أن التقنية وسعت غايات الإنسانية إلى أبعد الحدود ، و

هذا تمهيدا و تماشيا مع المرحلة القادمة من الإنسانية التي نسير إليها بكل دلالاتها الأنطولوجية و القيمية و التي أطلق عليها مرحلة الإنسانية البعدية. و هذا ما يفضي إلى ضرورة تغيير مفهومنا لبعض المبادىء الأخلاقية كالكرامة الإنسانية و حقوق الإنسان و إعادة صياغتها حسب رؤية الإنسانية الفائقة بعيدا عن التصورات الكانطية التي صبغت بها قبلا في عصر الأنوار، و عليه فمقولة الوجود الخير لم تعد مجرد تحقيق الخير في رحاب وجودنا الطبيعي ، بل أصبح يعني نزع النقص المرتب بالطبيعة و الجسد و العقل.

و عليه فالخطر لا يكمن في إكتشاف الجينات أو الصفات الوراثية للنوع الإنساني ، إذ يمكن استغلالها لخدمة البشرية و بلوغ الرفاهية و الحياة الفاضلة ، و إنما فيمن يتحكم فيها ، إذ ما يخيف هو الهيئات و المؤسسات التي تملك و تستخدم هذه التقانات و التي تكون عموما مشحونة بخلفيات ايديولوجية ، و منه ينبغي توعية الفئات الإجتماعية لتقبل مثل هذا النوع من المواضيع و تعليمهم كيفية التعامل معها. (كاكو، 2017، صفحة 240) و بالتالي فبناء مستقبل أفضل مرهون بتغيير الذهنيات.

3.3من الأخلاق إلى الإتيقا:

لقد عالجت الباحثة الفرنسية جاكلين روس Jacqueline Russ (1934-1999) موضوع تجدد الخطاب في كتابها الفكر الأخلاقي المعاصر La pensée éhique contemporaine و أحصت دوافع ذلك في أربعة عوامل أساسية تتمثل في : إفلاس المعنى ، تراجع الإيديولوجيات و السرديات الكبرى ، انتصار النزعة الفردية و أخيرا التطورات التقنية . و بسبب هذه الأوضاع وقعت الفلسفة الأخلاقية التقليدية في أزمة نهاية أو أفول ، و هو ما عبر عنه بمصطلح المنعطف أو المنعرج الأخلاقي ، إذ لم تعد تتماشى مع الواقع الراهن. (روس، 2001، الصفحات 13-17) ما استدعى وجوب بلورة خطاب أخلاقي جديد حيث أصبحت الأخلاق ضرورة لكل ممارسة إنسانية لكن ليس بمنظورها العاجي الفوقي المفارق للواقع و متغيراته و متطلباته، و إنما بمنظور واقعي محايث و ملامس لقضايا المجتمع في شتى المجالات

و بناء على هذه المقتضيات المعاصرة كذلك ، كان لزاما على المفكرين ايجاد البديل لنسج أخلاق تتماشى مع روح العصر الذي أضحى الإنهيار القيمي يجتاحه ، حيث وجدو أن عودة الأخلاق كفيلة بذلك بطابعها الواقعي المحايث بعيدا عن التعالي الديني و العقلاني ، و ليس المقصود بعودة الأخلاق الإحتكام إلى قواعد سلوكية ثابتة تنحصر في قيمتي الخير و الشر ، بل هي تجديد في قضايا التفكير الأخلاقي بما يتوافق مع متغيرات العصر و هنا نلمس عدة مستويات للفكر الإيتيقي بين العملي السلوكي و النظري المجرد و كذا الميتانظري. (جديدي، الأفق البيوإتيقي، 2021، صفحة 52) و قد وصفت هذه الحالة أي العودة إلى الأخلاق بالموضة مع تفضيل مصطلح الإيتيقا كونه عملي و يتناسب أكثر مع الوضعية الراهنة للواقع الإنساني و التي تتمظهر أكثر في الثورة البيوتكنولوجية.

يصف ليبوفتسكي هذه الوضعية – أي الرجوع إلى الأخلاق – بقوله : " بعد عهد تميز بالمضادة الحجاجية للأخلاق و برفض المعايير القمعية و بالمتعة التحررية ، عادت الموضوعات الأخلاقية بقوة في الخطاب الإجتماعي

للديمقراطيات ، و لكن ينبغي الحذر في هذا الشأن ، فما نسميه بنوع من الشرع رجوع إلى الأخلاق ، لا يقود أبدا إلى ديانة الواجب التقليدية ". (ليبوفيتسكي، 2018، صفحة 54) لقد رجعت الإيتيقا بقوة إلى صدارة الإنشغال الإنساني عبر بوابة الفلسفة التطبيقية خاصة أهم فروعها و مجالاتها البيوإتيقا كمرجع مهم لتقييم الوضع البشري بعد التحولات العميقة التي مست الإنسان و المجتمع في القرن العشرين إذ أن الأخلاق في الحقل البيو إتيقي مبنية على قيم بعد حداثية منفتحة رخوة تدافع عن الحرية الشخصية في وضع القيم التي أسسها الفرد ، مثل قضايا الموت الرحيم ، التبرع بالأعضاء ، الإجهاض...، و بالتالي فهي تحتاج إلى الحرية و المساواة و الحوار.

4.الإنسانية الفائقة : نحو رسم مقولات جديدة للأخلاق

1.4القضايا الأخلاقية في تعزيز الإنسان:

تعرض مشروع الإنسانية الفائقة للكثير من الإنتقادات و حتى الشتائم ، فهناك من وصفه بأنه داروينية جديدة سلبية و أنه ينذر بشن حرب ضد النوع البشري ، لهذا تعامل معها الكثير من الفلاسفة بتحفظ و حذر ، معتبرين فكرة تعزيز المعطيات الإنسانية البيولوجية و الذهنية يطرح العديد من المسائل الأخلاقية ، نجد من أهمها :

– الطبيعة و الهوية الإنسانية :

إن النقاش حول القضايا البيوتكنولوجية أفضى إلى تطور الخطاب الإتيقي ، حيث ساهمت جهود و محاولات العديد من الفلاسفة في ذلك ، و نجد من أبرزهم الفيلسوف الأمريكي فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama (1952–) الذي اقترح تصورا جديدا للأخلاق يخاطب التهديد البيوتكنولوجي على الطبيعة و التنوع البشري ، فكان بمثابة البيولوجي المحافظ المتشاءم من هذه التقنيات ، ما دفعه إلى التحذير منها في عدة مؤلفات و خطابات .خاصة و أنها أصبحت موجهة للتجميل و التحسين و التطوير و ليس العلاج فقط ، ما يؤدي إلى تغيير الطبيعة الإنسانية تغييرا جذريا، ما يؤثر على الهوية ، الكرامة ، و الحقوق ، ثم إن هذه التقنيات ليست نزيهة و شفافة فهي مطوعة بيد مستخدميها ، مؤدلجة مسيسة ، فما الذي نتوقعه إن تمكنت فئة كالنازية أو داعش على تقنية تحسين النسل ؟

إن التلاعب بالخريطة الوراثية للإنسان الغرض منه إنتاج كائنات تتمتع بمؤهلات و قدرات فائقة و قوية على المستوى الذهني ، النفسي و الجسدي ، و هذا ما يشكل أكبر تحدي أخلاقي و قيمي و أنطولوجي بالنسبة لفوكوياما ، و تبعا لذلك ستختفي الكثير من المفاهيم التي ينظر إليها كمبادىء ملازمة للكينونة الإنسانية على غرار المساواة ، السعادة ، العلاقات ، الأسرة ، الموت ، الحياة ، الفضيلة و الهوية ، ما يفتح المجال لظهور نوع جديد من البشرية لم نشهدها من قبل (فوكوياما، 2002، الصفحات 97-101)مثل : الإنسان المعدل جينيا ، الإنسان السيبورغ ، الإنسان الرقمي ، أي أنها ستشهد مرحلة جديدة اصطلح عليها بما بعد البشرية التي يرى فيها أنها لم تتحقق بعد و يشك في تحقيقها ، و قد اعتبرها ايديولوجية تسعى لتغيير طبيعة البشر بالقضاء على الموت ، المرض ، الشيخوخة و العجز عموما ، مستعينة بالتقنيات البيوطبية المتطورة جدا. و بالرغم من أن مناصروها حاولوا إضفاء صبغة أخلاقية على غاياتهم خاصة المتمثلة في تخليص الإنسان من كل ما يسبب له الألم و الوصول به إلى الحلم المنشود أي الخلود و

بإختصار خلق وجود مثالي و حياة أفضل ، فلماذا نمتنع عن مساعدة البشرية على تخطي مآسيها في حين أن البيوتكنولوجيا الفائقة تمكننا من ذلك ؟ ، إلا أن فوكوياما يرفض مثل هذا التفكير الساذج بحجة أنه يمس بطبيعتنا البشرية و بسماتها الماهوية و يدحض كذلك فكرة تسخير التقنيات الفائقة لتعديل و تعزيز الإنسان من منطلق حماية الرصيد الوراثي للكائن الإنساني الذي يتعلق بهويته المتجذرة في السمات الطبيعية المشتركة للإنسانية على إعتبار أن الجينات هي العامل الأساسي في قيام السلوك البشري. (فوكوياما، 2002، صفحة 132،133) و منه فالمساس بالجينوم البشري يعتبر قفزة نحو المجهول خاصة أن مثل هذه الممارسات تجرد الجنين الذي يعتبر شخص بالمعنى الأخلاقي من طابعه الإنساني و تتعامل معه كشيء مادي .

-مسألة الكرامة الإنسانية :

تعتبر الكرامة الإنسانية هي اللبنة الأولى التي تقوم على أساسها جملة الحقوق التي يسعى الإنسان للظفر بها كالحرية ، الإستقلالية و حرمة الجسد البشري ، لهذا ناشدتها الكثير من المنظمات الحقوقية . لكن التغيرات التي طرأت على المشهد العالمي المعاصر في مختلف الميادين و على رأسها البيوطب أدت إلى المساس بها و محاولة تخطيها نتيجة طغيان النزعة المادية النفعية. (فوكوياما، 2002، صفحة 211) و عليه نادى الكثير من الفلاسفة بضرورة إحترام آدمية الإنسان في إطار الأبحاث الوراثية الجينية من خلال عدم التعامل معه كآداة يمكن تداولها أو إخضاعه لتجارب تهدد حياته أو تحديد صفاته قبل ولادته أو تغييرها و تطويرها.

– مسألة الإستقلالية و الحرية الشخصية :

يسلم فلاسفة الإنسانية الفائقة بمبدئين أساسيين : الإستقلالية و الحرية الشخصية للإنسان في إختيار الكيفية التي يعيش بها ، و التي يكون بها جسده ، خاصة أن إمكانيات تعزيز جسده و عقله و مشاعره متاحة له في ظل التقنيات الفائقة NBIC ، و هذا يعتبر تصريحا منهم بعجز و قصور الطبيعة البشرية ، و بالتالي فهي بحاجة إلى الإصلاح و التعديل و التعزيز مستفيدين بما توصلت إليه و أنتجته ثورة الجينوم و الهندسة الوراثية من آليات التجميل ، الإنجاب ، التجميد ، إطالة العمر ، الخلايا الجذعية ...و غيرها . إذن وفقا لرؤية خبراء التحول الإنساني فتعديل و تعزيز الإنسان يعتبر إختيار شخصي يرجع بالدرجة الأولى إلى إرادة الشخص بإعتباره كائن عاقل واعي و حر ، فهو الذي يختار و يقرر أن يستفيد من البيوتكنولوجيات المعاصرة ليحسن ذاته و يعزز قدراته الجسدية و العقلية و يتغلب على الصفات غير المرغوبة اي تقويم و تصويب رصيده الجيني . (طاهير، 2023، صفحة 238،239)

لا يمكن أن ننكر بأن تغيير المدلول الأنطولوجي للكائن البشري بالتدخل في جيناته أي طبيعته البشرية هو أمر شخصي مرهون بإختياراته و موافقته الواعية ، لكن هذا الأمر ينجم عنهأيضا تغييرا للمنظومة القيمية السائدة و هذا ما يطرح تحديا أخلاقيا ، فالإنسانية الفائقة تبشر بحياة سعيدة و صحية لكن في المقابل فقدان لمشاعرهم ، علاقاتهم و الأخطر أخلاقهم و إنسانيتهم.

2.4رؤية ما بعد إنسانية للأخلاق:

يدرك دعاة الإنسانية الفائقة تمام الإدراك الإنزلاقات الأخلاقية لمشروعهم ، و لهذا فهم يسعون دائما لفتح باب النقاش و الحوار حوله خاصة من قبل المعارضين لفلسفتهم ، إيمانا منهم بأن العقل هو الذي يفصل في مثل هكذا مواضيع تخص التعديل الجيني ، الإستنساخ ، الذكاء الإصطناعي و غيرها ، إذ هناك نموذجان يحددان الفهم البعد إنساني للقضايا الأخلاقية التي تطرحها البيوتكنولوجيا المستخدمة لتعزيز الإنسان هما:

– فوبيا التكنولوجيا TECHNOPHOBIA :

وفقا لوجهة نظر فوبيا التكنولوجيا فإن التقنيات الحيوية تشكل خطرا على البشرية جمعاء ، نظرا لقدرتها على تغريب الأفراد عن إنسانيتهم المشتركة نتيجة تحريف طبيعة الجنس البشري التي يفترض أن تكون ثابتة الأصول و الخصائص ، و هنا تلعب التكنولوجيا دور الفاعل في بناء تصوراتنا عن أنفسنا و في تشكيل علاقاتنا التي يغيب فيها التفاعل الفعلي بين البشر ، الأمر الذي يؤدي بنا إلى تقليص مسؤولياتنا اتجاه الغير و بالتالي الإنعزال الأخلاقي. (بوستروم و ستيفن بكو، 2023، صفحة 19،18) هذه الرؤية مثلها العديد من الفلاسفة و البيولوجيين المحافظين على غرار فوكوياما الذي عالج في كتابه مستقبلنا بعد البشري Our posthuman futur التداعيات التي تطرحها الثورة البيوتكنولوجية على الإنسان و كذا التغييرات التي ألقت بها النزعة ما بعد الإنسانية على طبيعتنا البشرية المشتركة و القيم الأخلاقية ، و كما ذكرنا آنفا يأتي مفهوم الطبيعة البشرية عند فوكوياما على أنها تتكون من صفات العقلانية و الوجدان و الوعي و التشاركية الإجتماعية ، و كلها تتجمع معا لتشكل فهمنا الخاص لما يعنيه أن يكون الإنسان إنسانا ، و من هنا تأتي حاجة البشر إلى هذه الطبيعة البشرية المشتركة و سماتها التي تحددهم بإعتبارهم بشرا يتعايشون معا و يتعاونون لتحقيق الرقي و التطور و الأمن ، على هذا الأساس تنشأ الأخلاق و تستمد صلابتها و ثباتها ، فالطبيعة الإنسانية هي ما يعطينا حسا أخلاقيا و يوفر لنا المهارات الإجتماعية للعيش في المجتمع ، و عليه فإن أي تغيير يطال إنسانيتنا و هويتنا البشرية المشتركة لا يغير فقط في مفهومنا لذواتنا ، و إنما تهدد قيمنا الأخلاقية كذلك . (فوكوياما، 2002، صفحة 8،7)

و حسب فوكوياما فإن الإفراط في استخدام البيوتكنولوجيات على أجسادنا و ذواتنا هو تهديد بإنهيار منظومتنا الأخلاقية و تضعف الروابط الإجتماعية بين الأفراد و الجماعات التي جمعتها طبيعتنا المشتركة و نتيجة لذلك سوف ينهار النسق الإجتماعي و يتغير مفهومنا لحقوق الإنسان. (فوكوياما، 2002، صفحة 91) و يعتقد فوكوياما أن جاذبية الإنسانية الفائقة تكمن في وعودها المتمثلة في إطالة الحياة ، القضاء على الأمراض و الآلام ، تطوير القدرات العقلية ، و عموما تسهيل الحياة ما يدفع بالأفراد إلى الإقبال على تقنياتها متجاهلين مخاطرها ، و هذا ما يجعل الأخلاق عاجزة عن مواكبة هذا الوضع و عن ضبطه بقواعد ثابتة و صلبة أي تحديد ما الصواب و ما الخطأ حول هذه التطبيقات الحيوية. (بوستروم و ستيفن بكو، 2023، صفحة 24،23) و لقد اقترح فوكوياما حلا للتهديد الموجه لمستقبلنا القريب في توجه الإنسانية البعدية و الذي يتمثل في تسييس النقاشات و إنشاء معاهد سياسية لتنظيم التكنولوجيا الحيوية بدلا من تركها للعلماء و رجال الدين نظرا لعدم جاهزيتهم المهنية و افتق ارهم للسلطة. (فوكوياما، 2002، صفحة 171)

– الولع بالتكنولوجيا TECHNOPHILIA :

و في مقابل الإتجاه الأول نجد اتجاه الإنبهار بالتكنولوجيا ، إذ أنها حسبهم تزيد من الآداءات البشرية و تعززها و هنا يكون التحام التكنولوجيا بالحياة اليومية على أساس أنها تعبر عن معنى أن يكون الإنسان إنسانا متحررا من القيود و الحتميات البيولوجية و الإجتماعية ، إذن فهي تقدم فرصة أكبر للإختيار و تعمل على تعزيز الوجود البشري خاصة و أن الإنسان على قدر من الوعي و الإرادة الحرة في التعامل مع مثل هذه التقنيات . إن التكنولوجيا الحيوية لها غايتين إما تعويض العجز البشري أو زيادة في قدرات الإنسان ، و كلاهما في خدمة الإنسان ، و هنا تنشأ رؤيتهم للطبيعة البشرية التي لا تتعارض مع التكنولوجيا ، فالإنسان يكون إنسانا بإعتباره متوافقا مع الآلات و التقنيات التي أضحت جزءا لا يتجزأ منه ، فهي ليست غريبة عنه ، فنحن حيوانات تستخدم الأدوات ، و من هنا فلا يوجد أي مصوغ لنفي الأخلاق في ظل هذا الوضع. (بوستروم و ستيفن بكو، 2023، صفحة 25،26)

هذه الأفكار التي حاول الدفاع عنها الفيلسوف البريطاني أندي كلارك Andy Clark في مؤلفه هجين مولود طبيعيا Natural Born Cyborg الذي يتقارب و أفكار كتاب فوكوياما في معالجة قضية الطبيعة البشرية و خصيصتها التاريخية و الثبات ، لكن أفكاره غلب عليها طابع التشجيع و الحماس و التفاؤل بوعود الإنسانية الفائقة و تقنياتها الحيوية ، عكس فوكوياما الذي كان حذرا و متخوفا اتجاهها ، اذ ينظر للتدخلات التقنية على أجسادنا بمثابة تهديد مباشر لهويتنا و منه قيمنا ، بينما كلارك يعتبرها تعبيرا منطقيا لازم عن طبيعتنا خاصة و أنها تعمل على التقارب الإجتماعي و تكريس منطق التضامن و التواصل بين أفراد المجتمع البشري. (بوستروم و ستيفن بكو، 2023، صفحة 25)

3.4نحو إتيقا جديدة:

إن إقدام فلاسفة الإنسانية الفائقة على ضبط و تحديد معايير و مبادىء من شأنها أخلقة الممارسات البيوتكنولوجية لا يجعلها تضمن صمود القيم السائدة مثل الكرامة و الهوية و الحرية ، بل يمكن أن تؤدي إلى زوال الإنسان بكل دلالاته الأنطولوجية و الأخلاقية و الجمالية ، هذا ما دفع بالكثير من الفلاسفة إلى بلورة مبادىء اتيقية جديدة ايمانا منهم بأن الأخلاق هي المنفذ الوحيد للخروج من أزمة العدمية الأخلاقية و كذا أخلاقيات الإنسان الفائق ، و من بين أحد هذه النماذج نجد جاكلين روس.

سعت روس إلى تحليل الخطاب الأخلاقي المعاصر ، موضحة أسباب أفول الأخلاق – و التي تم ذكرها آنفا – ، إلا أنها لم تكتف بالنقد السلبي و الهدم للوضع الأخلاقي ما بعد الحداثي ، و إنما حاولت تقديم البديل و الذي يمكن وصفه بالأخلاق الغيرية ، التي تعبر عن أخلاق لإنسانية جديدة ترتسم معها معالم المستقبل بعيدا عن سيطرة التقنية المفرطة و عن التخوف المفرط منها ، و بهذا فهي أخلاق جديدة تنطوي على قيم لنظرية ما بعد إنسانية مجددة تفكر في كيف يمكن أن يكون الإنسان إنسانا ، و وفقا لأخلاق الغيرية التجديدية لدى روس تصبح أخلاق الإنسان الفائق مشروعا ترميميا يجمع بين المجتمع و الحقوق و التضامن و التعايش مع الإختلاف ، إذ أن حسبها لا تكفي عودة

الأخلاق ، بل لابد من ارسائها على مبادىء حيوية تبنى على مقولات التواصل ، احترام الغير ، العيش المشترك ، المحبة ، و تجنب العدوان و العنف ، و هذا تحقيقا للسلام الكوني .

أما فيما يخص رؤيتها لقضايا تعزيز و تعديل الإنسان فإنها تؤكد على ضرورة فتح باب النقاش و الحوار العقلاني و العمومي غير الإقصائي و الذي يجمع كل الفئات المختصة و المعنية بهذا الشأن للخروج بحلول تتماشى و إنسانية الإنسان بإعتباره كائن أخلاقي بطبعه ، و كذا تواكب التطورات الحاصلة في مجالي الطب و البيولوجيا ، و هنا تقر روس بجدية و أهمية مبدأ المسؤولية الأخلاقية الملقاة على البيولوجيين و الباحثين أمام الإنسانية في التعامل مع هذه القضايا التي تمس بهوية و كرامة الكائن البشري و عليه فلابد لهم من مراجعة أنفسهم و التعامل بجدية أكثر . (روس، 2001، صفحة 40،41)

5. خاتمة:

إن سيطرة التكنولوجيا الفائقة على الوضع الراهن و ما يقتضيه من إعادة تعريف الإنسان و العالم و منه الأخلاق ، فنجد مثلا أن مفهوم الإنسان تم إقصاء البعد الروحي الميتافيزيقي فيه و أصبح عبارة عن ماهية بيولوجية أو صفات وراثية يمكن إزالتها أو تركها أو تغييرها حسب رغبة الإنسان تحقيقا للكمال أو بلوغ الإنسان الفائق الذي دعا إليه مشروع الإنسانية الفائقة ، هذا ما استدعى تغيير التصورات الأخلاقية كذلك التي أصبحت مبنية على مرجعية العلم بمنجزاته ، و بالتالي فهي ذات طابع نسبي ذاتي متغير تتماشى و الرغبات النفعية للبشر و ترتبط بالسعادة الآنية كغاية قصوى ، هذا ما يدل على الإنقلاب الأخلاقي للوضع الإنساني في مرحلة الإنسان الفائق أو ما بعد الإنسانية كأفضل نموذج على ذلك ، إذ أن أخلاق هذه المرحلة تمت فيها إعادة تشكيل العلاقة بين القيمة و الإنسان وفق مقولات التقنو علمي : أخلاق وسيلة – حقوق دون واجبات – التقدم – الاستقلالية – المنفعة – الحرية ... ، هذا ما أنذر بقدوم عصر قيمي جديد نظر له العديد من الفلاسفة آخذين في الحسبان متغيرات التقنو علمي و حريصين على عدم طغيان نتائجه على جوهر الإنسان الثابت . ومما سبق تحليله نصل إلى النتائج التالية :

– تعتبر الإنسانية الفائقة حركة علمية فلسفية و اتجاه ايديولوجي يدعو إلى تغيير طبيعتنا الحالية إلى أخرى تتسم بالقوة و الكمال و الخلود.

– لقد تم اختراق الأخلاق الإنسانية الأنوارية بإسم التطور العلمي و التقني ، إذ أصبحت وسيلة لغاية و هي تحقيق سعادة الإنسان ، و مع تطور البيوتكنولوجيات انحصرت و ارتبطت بالكمال البشري و تحقيق الخلود و القوة من خلال السيطرة على الجسد و العضوية لخلق إنسان فائق.

– تصورات الإنسانية الفائقة و تخليق البشر كل هذه الأفكار أثارت أسئلة أخلاقية بإمتياز حول الكرامة ، الحرية ، الجسد البشري ، الحقوق ...

– إن التجاوزات البيوتكنولوجية أدت إلى الدعوة لعودة الأخلاق ، حيث تزايدت الدعوات عبر حوار عالمي بوجوب إعادة بناء خطاب أخلاقي ، يتلاءم مع المقدمات الأخلاقية الكونية.

6. قائمة المراجع:

روس،جاكلين، (2001)، الفكر الأخلاقي المعاصر، (عادل العوا، المترجمون)، عويدات للنشر و الطباعة ، لبنان .

ليبوفيتسكي،جيل، (2018)، أفول الواجب : الأخلاق غير المؤلمة للأزمنة الديمقراطية الجديدة ، (عصام المراكشي، المترجمون)،مركز نماء للبحوث والدراسات ، بيروت ،لبنان

ميار الإدريسي،خالد، (فيفري، 2017)، ما بعد الإنسان المفهوم و السياقات ، أفكار، المغرب، 13(2)، الصفحات 26-36؛

الدواي،عبد الرزاق، (2000)، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: هيدغر ، ستراوس ، فوك و، دار الطليعة للنشر ، بيروت ، لبنان .

بومسهولي،عبد العزيز، (2021)، نهاية الأخلاق أو الإنعطاف نحو المبدأ الإتيقي المحايث، دار الرؤية للنشر و التوزيع ، مصر .

فوكوياما، فرنسيس، (2002)، نهاية الإنسان – عواقب الثورة البيوتكنولوجية، إصدارات سطور.

جديدي،محمد، (2020)، ما البيوإتيقا، منشورات الوطن اليوم ، سطيف ، الجزائر.

جديدي،محمد، (2021)، الأفق البيوإتيقي، دار ميم للنشر، الجزائر .

طاهير،محمد، (2023)، البيوتكنولوجيا و مستقبل الإنسان، دار الموج الأخضر للنشر، تلمسان ، الجزائر .

كاكو،ميتسيو، (2017)، مستقبل العقل، (سعد الدين خرفان، المترجمون)، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت .

بوحناش،نورة، (2017)، البيوإتيقا و الفلسفة : من الإنسان الفائق إلى الإنسان المتزكي ، المؤسسة العربية للفكر و الإبداع ، بيروت ، لبنان .

بوستروم،نيك و بكو،ستيفن، (2023)، التكنولوجيا و الذكاء الإصطناعي : العقول الرقمية و الأخطار العالمية ، (حسين عبد الغني، المترجمون)، دار رؤية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر .

Ferry, Luc, (2016), La Revolution Transhumaniste , édition Plon, un département d'édie 8 , paris , France .

Hottois, Gilbert , (2017), Philosophie et Idéologies Trans/Post humanists , Librairie philosophique J.Vrin , Paris, France .